

## كتب

فكر

## «الحاكمية» بين مملكة الله وحكم البشر

ريتا فرج

منذ اجتماع السقيفة وتداعياته التاريخية، حتى التأسيس لمفهوم الحاكمية ومتعلقاتها، أثارت نظريات الحكم في الإسلام جدلاً فقهيًا وسياسيًا استمد هذا السجال أدبياته من النص القرآني حيناً، ومن الصراع على من يقود أمر الجماعة حيناً آخر. ورغم أن الواقع فرض نفسه على المقدس على وقع الشورى وطاعة ولي الأمر، بقي الجدل قائماً. بعد سيطرة منطق الغلبة والعنف على الخلافات الإسلامية المتعاقبة، بلغ المازق ذروته حين طرحت الحركات الإسلامية شعارها الأحادي «الإسلام هو الحل». الباحث السوداني الراحل محمد أبو القاسم حاج حمد، درس ملياً هذا الجانب في الفكر الإسلامي، في «الحاكمية» (دار الساقى)، كتابه الثاني المنشور بعد وفاته، يقترح تمييزاً معرفياً لمصطلح الحاكمية. من خلال استقراء لتدرجها في النص الديني، وفي الممارسات التاريخية، يصل الباحث إلى تحديد ثلاثة أنماط لها: الحاكمية الإلهية، ثم الاستخلافية فالبشرية. يتجلى المستوى الأول في الخطاب الإلهي الموجه لموسى، لنصل إلى قيادة الأمة وفقاً للفقهاء الإسلامي في المستوى الثالث.

وفي تفاصيل هذا التشريح، اتخذ مفهوم الحاكمية إطاراً سياسياً عند دعائه من أمثال المودودي، وسيد قطب، والإمام الخميني، وحسن البنا، ومثل ذروة التدرج الديني لتدخل المطلق في أفعال البشر. انطلقت مقاربات هؤلاء جميعاً من رؤية جبرية، أسقطت حرية الإنسان وتديره لشؤون حياته في السياسة والاجتماع والعلاقة مع الذات. اتجهت الحاكمية إثر طفرة الإسلام الحركي - بعد إلغاء الخلافة عام 1924 - نحو مزيد من التنصيص. وما إن أصبح

المسلمون على أرض بلا دولة، حتى توالى الاتجاهات الداعية للاخذ بالأنظمة الغربية وتكييفها مع الإسلام، أو المناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية. الجدي الذي قدمه الكاتب السوداني الراحل في بحثه هذا، يتأسس على تساؤلين: متى مارس الله الحاكمية الإلهية؟ وماذا تعني الحاكمية الإلهية في القرآن؟

مع إله العبرانيين، تجلت الحاكمية مباشرة: المقدس نتالى نحو الدنيوي وقاد حركته، وكان للخطاب الإلهي ترادف زمني رافق اليهود منذ سفر الخروج. وإذا توقفنا أمام تجربة سيد قطب، نجد أن الأخير صاغ أكثر الخلاصات تأثيراً في الإسلام الراديكالي، استناداً إلى بعض ما ورد في القرآن من آيات حول الحاكمية بمعناها السياسي والشمولي. بعد محنته مع النظام الناصري، أصبح النظام العلماني بالنسبة إلى قطب مساوياً للطاغوت الذي يعني الاستبداد طبقاً للفهم الأصولي.

يستشهد حاج حمد بالقراءة التي وضعها محمد عمارة للأديولوجيا الحاكمة، ويصل إلى «أن القائمين بالحاكمية صوروا الإسلام ودولته، ثيوقراطية، الأمة فيها مجردة تماماً من جميع السلطات». ولعل خلاصات قطب تعتبر امتداداً لأزمة الفكر السياسي الإسلامي الذي يفتقد نصاً دينياً صريحاً يحدد ماهية الدولة، أو الخلافة المنشودة، في ما يتعدى منطلق «أمرهم شورى بينهم». بذلك أسقط التاريخ على النص، فاجترح الأصوليون نظرياتهم وأسسوها لما يعرف بالإدب السلطانية، أو آداب الربا، التي تحيل السلطة برمتها إما إلى الخليفة أو إلى الإمام.

لكن الإشكالية في المدرسة القطبية التي تمثل امتداداً لفوضى الإسلام السياسي - أي الإسلام التاريخي وليس إسلام النص - أنها لم تر العالم إلا من مرآتها. هكذا، دعت

إلى إقامة مدينتها الفاضلة بإقصاء التعدد، وتكفير الأنظمة والمجتمع، وتعميم الجاهلية. وها هو صاحب «معالم في الطريق» يقول: «لا بد من تحطيم مملكة البشر، لإقامة مملكة الله على الأرض. ومملكة الله على الأرض، لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال باعيتهم، لكنها تقوم بانتزاع السلطان من أيدي مغتصبه من العباد، وردة إلى الله وحده، وسيادة الشريعة الإلهية وإلغاء القوانين البشرية».

يقدم الباحث تفريقاً يستمولوجياً، بين الحاكمية الإلهية وحاكمية الإستخلاف. وفي الأخيرة، يجتمع الملك مع النبوة. أما الأولى، فترتبط



**رؤية جبرية أسقطت حرية الإنسان في تدبير شؤون حياته في السياسة والاجتماع والعلاقة مع الذات**



بعلاقة العبرانيين مع الخطاب الإلهي، إلى درجة يظهر النص مفارقاً أو مستقلاً عن التاريخ. وبصرف النظر عن مدى سطوة الأسطورة والروايات عند غالبية النصوص المقدسية، إلا أن هذا التفريق يبدو مقبولاً. بعدما دشّن إليه التلمود مملكته على الأرض من خلال خطاب مُنزل إلى موسى على قاعدة التكليف، بدأ التحول في مطالبة اليهود بحاكمية الإستخلاف، أي إن تدخل الله ما عاد مباشراً، ما أفضى إلى تأسيس الملك مع كل من داوود وسليمان.



بعلاقة العبرانيين مع الخطاب الإلهي، إلى درجة يظهر النص مفارقاً أو مستقلاً عن التاريخ. وبصرف النظر عن مدى سطوة الأسطورة والروايات عند غالبية النصوص المقدسية، إلا أن هذا التفريق يبدو مقبولاً. بعدما دشّن إليه التلمود مملكته على الأرض من خلال خطاب مُنزل إلى موسى على قاعدة التكليف، بدأ التحول في مطالبة اليهود بحاكمية الإستخلاف، أي إن تدخل الله ما عاد مباشراً، ما أفضى إلى تأسيس الملك مع كل من داوود وسليمان.



بعلاقة العبرانيين مع الخطاب الإلهي، إلى درجة يظهر النص مفارقاً أو مستقلاً عن التاريخ. وبصرف النظر عن مدى سطوة الأسطورة والروايات عند غالبية النصوص المقدسية، إلا أن هذا التفريق يبدو مقبولاً. بعدما دشّن إليه التلمود مملكته على الأرض من خلال خطاب مُنزل إلى موسى على قاعدة التكليف، بدأ التحول في مطالبة اليهود بحاكمية الإستخلاف، أي إن تدخل الله ما عاد مباشراً، ما أفضى إلى تأسيس الملك مع كل من داوود وسليمان.



**يسأل دي سوتو: لماذا تنجح الرأسمالية في الغرب فقط؟**



يسأل دي سوتو: لماذا تنجح الرأسمالية في الغرب فقط؟

يقرأ الكاتب الراحل مسألة الحاكمية من منظور ديني، ويتجنب مقاربتها من الناحية العلمية. فهو من جهة لا يفارح عقائد الأصوليين على الجبهة الإسلامية، ومن جهة أخرى يستشهد بالكثير من الآيات القرآنية من دون تقديم قراءة جديدة تفارق التلاوة الإنشائية. هكذا يخلص إلى أنماط الحاكمية الثلاثة المذكورة آنفاً: الحاكمية الإلهية التي مورست على بني إسرائيل منذ إخراجهم من الأبرار الفرعوني - الحاكمية الاستخلافية التي كانت في بني إسرائيل على عهد داوود وسليمان، وليس لها علاقة بالإسلام - الحاكمية البشرية بتأسيسها على يد الرسول جاعلة منهجها القرآن.

يتساءل الكاتب السوداني لماذا لم يمنح الرسول مؤسسات للدولة الإسلامية وبشكل أشكال الحكم فيها؟ ولماذا لم يستخلف من يليه؟ ويجب لو فعل ذلك لفضى على مفهوم الحاكمية البشرية التي تعود سلطتها إلى الأمة عبر الاختيار الحر والشورى.

لا شك في أن محمد أبو القاسم حاج حمد يسعى إلى الخروج بمادة جادة، تضع الحاكمية في سياقها التاريخي المدرج. نجده وقد نجح نسبياً في ضبط فرضياته بغية الفصل بين تدخل الله في التاريخ عند العبرانيين من جهة، وجعل التاريخ عنصراً محدداً لمسيرة الجماعة وشؤونها الدنيوية في الإسلام من جهة أخرى. لكن، حيناً لو أنه ضمن صفحات الكتاب، وجهة نظر تحليلية للأطر العقائدية التي صاغها القائلون بالحاكمية، بدءاً من أبي الأعلى المودودي. هذا الغياب أفقد البحث قدرته على محاكاة قارئه لأسباب عدة، أبرزها سطوة النهج الذاتي على ما عده من مناهج استنطاق النص. لو فعل، رحمه الله، لأضفى بعداً نقدياً، ولترك لنا دراسة أكثر إقناعاً من الناحية المنهجية.

## الحاكمية

محمد أبو القاسم حاج حمد



في كتاب ثان صدر بعد وفاته عن «الساقى»، يقدم محمد أبو القاسم حاج حمد مقاربة معرفية لـ «الحاكمية»، إلهية كانت، أو استخلافية، أو بشرية. يضع الباحث السوداني المصطلح الشائك في سياقه التاريخي، في ضوء النصوص الدينية المنزلة، وأزمات الخلافة والشورى، مروراً بدعوى سيد قطب الراديكالية

اقتصاد

## رأسمالية «الكارثة»: الفقراء هم الحل!

خليفة صويلح

يعتبر هرناندو دي سوتو في «لغز رأس المال» (الهيئة العامة السورية للكتاب - ترجمة حسام الدين خضور)، أن سقوط جدار برلين، ليس مجرد تمثيل رمزي لانتهاء الشيوعية، بل لحظة فاصلة بين قرن وآخر. وجد العالم نفسه أمام خيار أوحده هو الانخراط في النهج الثقافي للرأسمالية، بوصفها الطريقة العقلانية الوحيدة الممكنة لتنظيم الاقتصاد الحديث. لكن الباحث البيروفي لا يستسلم لمقولات النخبة بعدم الإصغاء إلى «الكلاب النابحة». يرى أن العثرة الأساسية التي تحول دون استفادة بقية العالم من الرأسمالية هي «عجز هذه البقية عن إنتاج رأس المال». هناك بالطبع معضلات أخرى تواجه البلدان الفقيرة، أبرزها الهجرات العشوائية إلى المدن الكبرى، وعجز الحكومات

عن سن قوانين جديدة تواكب هذه التحولات، والاعتراف برأس مال يعمل من دون غطاء قانوني.

لماذا تنجح الرأسمالية في الغرب وتفشل في كل مكان آخر؟ عنوان فرعي آخر يطرحه هرناندو دي سوتو للإجابة عن أسباب تخلف اقتصاديات الدول الفقيرة، فيشير إلى جفاف القوانين القديمة التي لم تلتقط ما يجري بدقة في «نادي العوالة». بناء المولات وخدمة الإنترنت ومطاعم الوجبات السريعة، لا تصنع حداثة اقتصادية، وفقاً لما يقول، بل ينبغي الانتباه إلى ما يجري من فساد وفوضى، وتالياً أعمال الشغب والنهب، بسبب عنف الأسواق والقلق من فاشية رأسمالية جديدة... «فانتصار الرأسمالية في الغرب قد يكون وصفاً للكارثة الاقتصادية والسياسية ليس إلا».

لعل تنبؤات دي سوتو التي طرحها قبل عقد، باتت حقيقة في ظل

الأزمة الاقتصادية العالمية، إذ طالما تجاهلت الأنظمة الرأسمالية ضرورة وجود عقد اجتماعي عالمي للحد من الفقر وعوالة رأس المال. العوالة التي ظلت فكرة غائمة لمصلحة النخب التي تعيش تحت الغطاء الزجاجي، وهي على أي حال ليست بارتداء أهدبة «نايكي» لاختزال المسافات بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، كما أن نظرية آدم سميث لن تنتصر منفردة بإغفالها «شبح ماركس»، فين وسائل الاتصالات وغازرة المعلومات، أسهمت في زيادة معرفة الفقراء أسباب بؤسهم، وهذه المرارة بسبب التمييز القانوني، تنحج نحو التفاقم، وفي مرحلة ما سيعبأ هؤلاء الذين خارج الغطاء الزجاجي ضد الوضع الراهن. وينبئ المؤلف إلى أن النهوض المفاجئ للصراعات الإثنية والثقافية في العالم تثبت أنه عندما يكون الناس مستائين، يستمرون في تكوين أنفسهم في طبقات قائمة على



**يسأل دي سوتو: لماذا تنجح الرأسمالية في الغرب فقط؟**



يسأل دي سوتو: لماذا تنجح الرأسمالية في الغرب فقط؟

«الظلم المشترك». الإحصاءات التي اعتمدها دي سوتو، تؤكد حجم كارثة الفقر التي يعيشها الكوكب من جهة، وازدياد حجم «الترسانة المعادية للرأسمالية والعوالة» من جهة ثانية. أولى الإشارات تأتي من فضائح الشركات المتعددة الجنسيات التي كلما وسعت استثماراتها، ازداد عدد الفقراء في العالم، وهذا ما يفسر فشل برامج الخصخصة في دول العالم الثالث، والأنظمة الشيوعية السابقة، بتأثير من أفكار ماركسية كامنة. فقد فهم ماركس جيداً أن «النفوذ والسلع في ذاتها ليست رأسمالاً بقدر ما هي وسيلة إنتاج وقوام عيش». وينصح دي سوتو بالاستفادة من مفاهيم فلسفية وتمثيلات ثقافية لجعل الرأسمالية «تفكر وديماً». ويخلص إلى أنه «ليس الفقراء هم المشكلة، بل الحل... والإفلا تستهينوا بالعصيان المدني والمافيات، لأنها لم تعد ظواهر هامشية في عالم اليوم».

